صحيحا ، إلا بقايا لا تغنى عنه ، كما أصبح يوما فى ميدان الحرب ، ومعه بقايا أسلحة لا تغنى عنه شيئا .

جاءت الغزوات الصليبية الجديدة متلاحقة سريعة نفاذة تنشر طلائعها الأولى فى كل مكان ، مزودة بالفهم والإدراك والمعرفة ، بطبيعة هذا الميدان الجديد ، فتلقى قوما قد سلبوا الفهم والإدراك والمعرفة لطبيعة هذا الميدان . ولكنهم كانوا بفطرتهم يعلمون أن هذه الطلائع عدو لهم ، فقاومهم من قاومهم بما تستثيره الفطرة من بغض العدو والشك فيه ، وإن جاء فى ثوب المسالم والناصح . وتهاوى آخرون ، فوقعوا فى حوزة العدو ، إذ غرتهم مسالمته وخدعهم نصحه ، وظلت هذه الحروب دائرة بيننا وبينهم أكثر من مئة وخمسين عاما ، فى سكون وصمت ، ولجاجة وحرص ، وقوة وحذر ، ومعرفة وبصر ، حتى بلغ العدو منا مبلغا لم يكن فى أول الأمر يظن أنه يبلغه . فقد تهاوى البناء كله فجأة . وأصبحت الحياة الإسلامية أطلالا يناديها الفناء فتجيب بلا مقاومة ولا عناد .

ذهب كل شيء يكون للحياة البشرية قواما وعمادا : ذهب العلم والأدب والأخلاق واللغة والتاريخ ، وجاءه الغزاة بما يحل مكانه من علم وأدب وأخلاق ولغة وتاريخ . ذهب الذى كان ينبع نبعه من كتاب الله ، ومن حياة الأمة المسلمة ، وسنة رسوله ، وجاء الذى ينبع نبعه من الحياة الوثنية القديمة ، ومن المسيحية المحدثة ، ذهب الذى كان يتحدر إلينا كما تتحدر الوارثات من أصلاب الآباء إلى أصلاب الأبناء ، وجاء الذى يتحدر إلينا كما يتحدر السيل الجارف لا يبقى ولا يذر . ذهب شيء وجاء شيء ، فتغير نظرنا وفكرنا ، وتغير إدراكنا ومعرفتنا ، وتغير شعورنا وإحساسنا ، وتغير لساننا وبياننا . فعدنا ننظر فى الكتاب الذى هو كتابنا ، وأخبار النبى الذى هو نبينا ، وآثار الماضين الذين هم آباؤنا ، فأنكرنا ما وجدنا فى ذلك كله ، فطرحه منا من طرحه وراء ظهره ولم يبال به ، وتهيب منا من تهيب فوقف لا يدرى ماذا يفعل ، وبقيت طائفة لا تطرح ولا تتهيب ، فطلبت مخرجا من هذا الشيء الذى تنكره إنكارًا خفيفا ، وهو فى هذه الصورة التى جاء عليها من التراث الماضى . فرأت المخرج فى تجديد التراث

الماضى تجديدا مقاربا ، يطابق الحياة الجديدة من وجوه ، وينكر الحياة القديمة من وجوه أخرى .

ومن يومئذ انقسم العالم العربى والإسلامى إلى طائفتين : طائفة منكرة لا تعبأ شيئا بالحياة الماضية كلها ، وطائفة لم يبلغ بها الإنكار أن لا تعبأ ، فالتمست تجديد الحياة الماضية على أسس جديدة . وإذا هذه الأسس التى تريد أن تؤسس عليها ، هى فى جوهرها مستمدة كلها من الحياة التى أنشأها الغازى الصليبى بين ظهرانينا .

* * *

هذه صورة مصغرة للحياة فى العالم الإسلامى الحاضر . لا يدركها المرء حتى يعلم أن العالم الإسلامى مقبل على خطر أبشع من خطر الغزو الصليبى الأول بالسلاح ، مقبل على هزيمة منكرة تكون عاقبتها تبديل الإسلام تبديلا كاملا حتى لا يبقى له من ظل الحق إلا ما بقى من ظل المسيحية الحقة فى العالم المسيحى الحاضر .

ودعاة هذا التبديل ، علموا أو لم يعلموا ، قد تعاووا فى كل مكان باسم الدفاع عن الإسلام ، وباسم إحياء الإسلام ، وباسم تجديد الإسلام . وهم يعملون جاهدين على أن ينشروا دينهم الجديد - كما ينبغى أن يسمى - بجميع الوسائل التى يظنون أنها تفضى بهم إلى الدفاع عن الإسلام أو إحيائه أو تجديده . وهم على مر الزمن ، سوف يتركون آثارا عميقة فى حياة العالم الإسلامى الحاضر ، وسيتبعهم تابعون يقتفون آثارهم ، مبعدين عن النهج الأول الذى بنى عليه هذا الإسلام الذى يدافعون عنه أو يحيونه أو يجددونه ! بل إن هؤلاء أنفسهم قد كانوا خلفاء لجيل سبق من قبلهم ، أعمته الحياة التى بهرت عينيه وزلزلت عقائده ، فطلب كما يطلبون ، الدفاع عن الإسلام وإحياءه وتجديده ، على أسس لم يستمد أصلها من الحق الذى فى دينه ، بل من أصل بعيد هو الحياة التى يحياها العالم الصليبى الذى غلب وقهر وظهر مجده فى هذه الأرض .

إن هذا الوباء الذى يجتاح العقل الإسلامى والحياة الإسلامية ، قد نفذ إلى

كل ركن فى هذا العالم ، وسارت حُمَيَّاه سَوْرَة مستبدة بكثير من رؤوس الدعاة . وانطلقت الألسنة مسرعة تريد أن تبنى بناء عقليا جديدا لهذا الإسلام الذى تهدم بناؤه القديم ، فما تجد لسانا إلا وهو يرسل طوفانا من الكلام بلا حذر ولا توقف ، وكل لسان يرى فى الذى يرسله مادة صحيحة لبناء هذا العالم المتهدم . وأصبح كل داعية إماماً يقتدى به . والمقتدون به لا يعلمون شيئا إلا أن هذا السيل المرسل عليهم ، ليس إلا أصلا صحيحا من أصول هذا الإسلام الذى يدعوهم إليه . وكل داعية يظن نفسه ينبوعا يروى الظامئين ، يسألونه فيجيب ، فيطوفون به طواف الوثنى بالصنم . مادة علمهم أن يستمدوا منه ما يجود عليهم به . ولا يجد أحدهم متسعا أن يلتمس علمه إلا من فيض لسان هذا الإمام الداعى . والإمام مشغول بالتماس المعانى التى يفيضها عليهم ، وهم لا يسألونه من أين يأتى بها . وكل داعية مشغول بإعداد المادة لمن يتبعه ، لا يحذر ولا يخاف ولا يتحرى . وكل داعية مشغول عن الداعية الآخر ، لا ينظر فىأمره ولا يتعقبه ولا يقول له من أين جئت بهذا . بل لعله يغفل عن أفسد الفساد فى قوله وفعله ، وأقبح القبح الذى يبثه فى أتباعه ، لأنه يقول لنفسه إننا مشغولون جميعا برم هذا البناء الذى تهدم ، بل ببناء شىء هو خير من الذى تهدم . وكل داعية منهم هو فى الحقيقة منكر للحياة الأولى للإسلام ، ولكنه يريد أن يقاوم الفناء بأن يستخرج من نواحى هذه الحياة ما يقنع هو به ، ويقنع بعض الناس به : إن فى ماضى الإسلام ما يمكن أن يكون مماثلا للحياة الحاضرة ، أو تصحيحا لبعض أخطاء الحياة الحاضرة . بيد أنه لا يصل إلى ذلك إلا بنظره هو ، وتفكيره هو ، بصورة يرتضيها هو ، ولا يبالى أن يكون استدلاله فى غير موضعه ، ولا أن يكون فكره قد فسر الأشياء على غير ما ينبغى أن تكون عليه ، أو على غير ما كانت عليه .

فأعمال هؤلاء الدعاة ، ليست فى الحقيقة إلا ضربا من هذيان هذا الوباء المقرون بالحمى ، ليس له أصل إلا فورة الدم فى المحموم . فإذا استمر أمر الإسلام على هذا الذى نراه ، فقد انتهى كل شىء . وإذا قدر لهذا العالم الإسلامى أن تعتزل طائفة منه هذا الخبل الخابل ، لتعيد النظر فى الأصول الصحيحة لدينها ،

والتى لقى بها هذا الدين عالم الشرك والكفر فدكه ومزقه ، وأقام فيه بناءً قاوم الفناء ثلاثة عشر قرنا ، فيومئذ تبدأ المرحلة الأولى لجهاد طويل شاق ، يتحدى طواغيت الكفر بإيمان صحيح ، لا تشوبه شائبة من هوى أصحاب الأهواء ، بل هو طاعة الله ورسوله ، لا يغنى غيرها شىء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأعود فأقول : من ظن هذا تشاؤما وتثبيطا فليظن ما شاء له الظن ! وليس يغنى عن الأعمى شيئا أن تقول له أنت مبصر بعينين لماحتين ، ولا عن المغروس فى حومة الهلاك أن تقنعه بأنه خالد ليس للموت عليه سلطان .

* * *